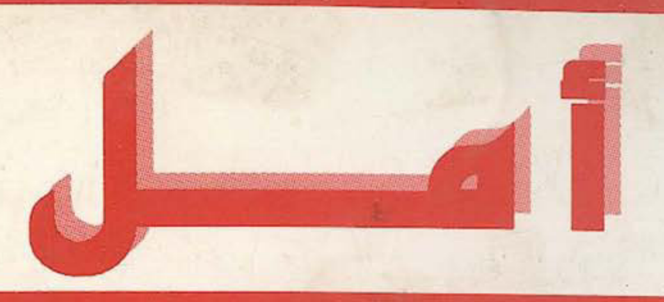
العدد الثاني ▫ السنة الأولى ▫ 1992



التاريخ - الثقافة - المجتمع



- حوار مع الأستاذ محمد حجي
- إشارات حول علاقة العلماء/الفقهاء بالمجتمع (ملف)
- تكويني كمؤرخ
  فيرناند بروديل
- كتابات حول للمسألة النسائية

المحتوى

ملف الدراسات

مفاهيم وقضايا نظرية

متابعات

كتابات ووثائق حول المسألة النسائية

تكـويني كـمـؤرخ*

فيرناند بروديل
ترجمة : محمد حبيدة

كيف تشكل، يوما عن يوم تكويني كمؤرخ وكيف يجوز لهذا التطور، الذي يتقاطع مع تاريخ مدرسة الحوليات، أن يكون تجسيدا لخصوصيات الاسطغرافيا الفرنسية المعاصرة؟ ذلك هو السؤال المزدوج الذي طرحه عليّ ويليام ماك نيل (W. Mc Neil)، سنة 1972، عن جريدة «التاريخ الحديث» (Journal of Modern Hostory). أعترف أنني تظاهرت الصَّمَمَ وقتا طويلا أمام هذا الاقتراح الذي يجبرني أن ألقي على نفسي نظرة شاذّة، أن أعتبر نفسي، إذا صحّ القول، موضوعا للتاريخ وأن أدخل في أسرار لا يمكن أن تتموضع، من أول وهلة، إلا تحت تأثير المحاباة، بل الغرور. لقد فكرت كثيرا في هذه العوامل، لكن ويليام ماك نيل أصر بشدة : فإذا لم أكتب بنفسي هذا المقال، عليّ أن أتفضل بتقديم المراجع الضرورية لشخص آخر من أجل كتابته! أخيرا تنازلت وسأحاول الإجابة بكل نزاهة على السؤال المزدوج المطروح معترفا أنني لست متأكدا أن يكون هذا العرض الشخصي، ذو الفائدة المريبة، فاصلا في النقاش حقا.

(*) F. BRAUDEL, "Personal Testimony", Journal of Modern History, vol. 44, déc. 1972, pp. 448-467, repris et traduit sous le titre "Ma formation d'historien", in Ecrits sur l'histoire II, Paris, Editions Arthaud, 1990,pp. 9-29.

I

لنبدأ إذا بالشاهد. وُلدتُ عام *1902* بقرية صغيرة بين شامبانيا وباروا، تضم اليوم مائة من السكان، والتي كانت تحتوي زمن طفولتي على ضعف العدد تقريبا. إنها قرية متأصلة منذ قرون، ذلك أن موقعها المركزي في ملتقى ثلاثة طرق ومسلك قديم قد يكون مطابقا، في اعتقادي، لساحة ضيعة غالو رومانية قديمة. إنني لم أزدد بها فقط من باب صدفة العطلة الصيفية التي قادت والديّ إلى هناك، بل عشت بها وقتا كافيا لدى جدتي الأبوية التي شكلت شغف طفولتي وشبابي. حتى اليوم لا أزال أستحضر بارتياح هذه السنوات الأولى التي ظلت واضحة جدا في ذاكرتي. إن المنزل الذي سكنته، والذي شيد عام *1806*، استمر كما هو عليه، أو تقريبا، إلى غاية *1970*، وهو رقم قياسي جميل بالنظر لمسكن ريفي بسيط. أظن أن هذا التدريب القروي الطويل، المتجدد مرارا، كانت له أهميته بالنسبة لتكويني المستقبلي كمؤرخ. فما تعلمه الآخرون من الكتب، أدركته من منبع حي منذ الصغر. لقد كنت منذ وقت مبكر ولا أزال مؤرخا من أصل فلاحي، مثل غاسطون روبنيل (G. Roupnel)، مؤرخ البوادي البورغينية، ومثل لوسيان فيڤر رجل الفرانش كونتي قبل كل شيء. لقد عرفت عبر ذلك نباتات وأشجار هذه القرية الواقعة شرق فرنسا، عرفت كل واحد من سكانها، شاهدت كلا من الحداد ونجار العربات والحطابين والصيادين*، وهم لازالوا يمارسون أعمالهم بالقرية، شاهدت التغير السنوي لحدود مشارات التناوب الزراعي التي لم تعد تحمل اليوم سوى منتجعات مخصصة للرعي؛ شاهدت دوران عجلة طاحونة قديمة قد تكون شيدت في الماضي من طرف أسلاف آبائي لفائدة سينيور الجوار. وككل فرنسا الشرقية الفلاحية والمليئة بالذكريات العسكرية، كانت أسرتي تقف بجانب نابليون في أوستيرليز وبيريزينا. ومن باب المفارقة غير الفريدة، أن تسير هذه المنطقة سنتي *1793* و *1794* وراء الجيوش الثورية، وهي تساهم في الإخلاص للثورة وانتقادها، ثم تظهر في وقت لاحق بموقف مخالف غير ثوري.

كان أبي معلما بباريز، حيث أنهى حياته القصيرة (*1878* - *1927*)

كمدير لمجموعة مدرسية. والحال أني حظيت، من *1908* إلى *1911*، بالسكن في الضاحية الكبرى لباريز، تلك الضاحية التي كادت تكون في ذلك الوقت بادية بالتمام. إنها ماريبل، تلك القرية الكبيرة ذات المنازل الثقيلة المبنية من الحجر، والبساتين المسيجة بالحيطان، المليئة بالمشمش والكرز والتي تزول كل ربيع تحت الثليج المزهر. كان نهر اللوار الذي يجاورها شمالا يجلب إليها مواكب الزوارق البلجيكية التي تجرها السفن من ورائها. ومن وقت لآخر كان أخلاف الماريشال لان (Lannes) الحاملين لاسم مونتيبيلو ينظمون صيدا رائعا بالكلاب المطاردة.

في المدرسة التي دخلتها في وقت متأخر كان لدي معلم هائل، ذكي ويقظ، مستبد، يسرد تاريخ فرنسا كما تقام صلوات القداس.

ثم تابعت دراساتي بثانوية فولتير بباريز (*1913* ـ *1920*). وقد استفدت أنا وأخي، من التعاليم اللبقة لأبي الذي كان رياضيا بطبعه، بحيث أن دراساتنا في هذا المجال كانت في غاية السهولة. قرأت كثيرا اللاتينية وشيئا من الإغريقية. أحببت التاريخ وأنا أتمتع فضلا عن ذلك بذاكرة قوية. كتبت أشعارا، بل الكثير من الأشعار. وإجمالا كانت دراساتي جد موفقة. كنت أريد أن أكون طبيبا، لكن أبي عارض هذا التوجه الذي لم يكن مؤكدا بالشكل الكافي. فوجدت نفسي محيّرا سنة *1920* التي كانت كئيبة بالنسبة لي. وأخيرا بدأت في السوربون دراسات في التاريخ. وها أنذا مجاز، حامل لشهادة، مبرّز دون صعوبة ولكن دون رغبة حيّة. لقد كان لدي إحساس أنني أرخصت حياتي بعض الشيئ، أنني اخترت السهولة. إن توجه المؤرخ لم يأتيني إلا في وقت لاحق.

من السوربون الحبيبة التي لم تكن مكتظة آنذاك، لا أحتفظ إلا بذكرى واحدة طيبة : دروس هنري هوسير (H. Hauser). لقد كان يتكلم لغة متميزة عن الأساتذة الآخرين، لغة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي؛ إن هذا الشخص، ذي الذكاء الرائع، كان يعرف كل شيء ويقدمه دون فخفخة. كان يتكلم أمام عدد قليل من المستمعين، ستة، سبعة أشخاص. إنها علامة ذلك الزمن. ولنكن عادلين : لقد كنت أرغب أيضا في تتبع دروس موريس هولو (M. Holleaux)، المتخصص البارع في التاريخ الإغريقي، والذي كان يتكلم هو كذلك لثلاثة أو أربعة مستمعين، منهم المؤرخ الروماني كانطاكوزين (Cantacuzène)، والعميد اللاحق للسوربون أندريه إيمار (A. Aymard).

انتهت دراساتي في رمشة عين بحيث أصبحت أستاذا للتاريخ بثانوية قسطنطينة (الجزائر) وعمري 21 سنة. كنت آنذاك مؤرخا متدربا كمئآت من المؤرخين الآخرين. ألقن كآلاف الآخرين تاريخا حَدَثيًا يُسلّيني لأنني كنت أتعلمه وأعلمه في نفس الوقت. لقد كنت منذ البداية ما يمكن أن نسميه أستاذا جيدا يتبادل مع تلامذته وداً كبيرا. أكرر مرة أخرى أنني كنت مؤرخا للحدث، للسياسة، للشخصيات الجسام. لقد كانت برامج التعليم الثانوي مُلزمة. فالبحث الذي أنجزته في إطار ديبلوم الدراسات العليا: «بارلو دوك خلال السنوات الثلاث الأولى من الثورة الفرنسية» (ككل طالب يساري في تلك الفترة كانت ثورة 1789 تجذبني وتشدني) كان واجبا ضميريا، باختصار، كانت ساعتي تدق على إيقاع الجميع، وعلى النحو الموافق لأساتذتي التقليديين. لقد عملت جاهداً أن أكون مثلهم بحاثة نزيها ومرتبطا ما أمكن بالأحداث. ديبلومي يثبت هذا الإخلاص، شأنه في ذلك شأن مقالتي الأولى المنشورة عام 1928 («الإسبان وإفريقيا الشمالية») أو مداخلتي في ندوة العلوم التاريخية المنعقدة بالجزائر سنة 1930 والتي كنت فيها كاتبا مساعدا ـ وهي بالنسبة لي فرصة لأرى أساتذتي من جديد ولأتعرف على هنري بير (H. Berr) أكثر «الأشخاص القادمين» وداً وكرما، والذي كان همه الوحيد هو إقناع الآخرين وفتنهم.

إن إقامتي بالجزائر استمرت إلى غاية 1932، وهي مدة لم تقطعها إلا الخدمة العسكرية التي منحت لي سنتي 1925 و 1926 الفرصة لأجوب كل منطقة رينانيا، لأعرف ألمانيا وأحبها.

كانت لديّ إذا إمكانية العيش الرغيد في مدينة بديعة، وذلك تحت شعار المتعة والزيارة الجدية لكل بلدان إفريقيا الشمالية، حتى الصحراء الساحرة.

أظن أن هذا المشهد، هذا البحر الأبيض المتوسط كنظرة من الضفة الأخرى، من «الظهر» ساهم إلى حد بعيد في بلورة تصوري للتاريخ. إلا أن نقلتي الفكرية تكونت ببطء. وعلى أي حال، فإنني لم أكن أفهم، إبان هذه الفترة من حياتي، المأساة الاجتماعية والسياسية والاستعمارية التي كانت تجري تحت أعيني، والحقيقة أن سواد الليل لم ينزل بقوة على إفريقيا الشمالية إلا بعد 1939. عليّ إذا أن أقدم اعتذاراتي. أولا الحاجة إلى العيش عندما يكون المرء في سن العشرين، ذلك الاهتمام الحصري بالذات، المرشد الجيد والقبيح؛ ثم

صعوبة تعلم العربية (فقد حاولت بجدية ولم أتوفق)؛ وأيضا القلق المطلق الذي كان ينتابني بخصوص ألمانيا التي رأيتها عن قرب، وكنت أحبها وأهابها في نفس الوقت، كيف لا وأنا رجل فرنسا الشرقية. ويمكن القول بالخصوص أنه إبان سنوات *1923* و *1926* وخلال السنوات الموالية لم تعد الجزائر الفرنسية تمثل غولا بالنسبة لي. ربما قد يأتي يوم يكتب فيه أحد «الأقدام السوداء» حول هذه السنوات المفقودة كتابا شبيها بـ «مقدار ما تحمل الريح»، ومهما يكن من أمر فإنني لم أحس آنذاك بوخز الضمير. وهو إحساس لن يُلمس إلا بعد عشرين سنة. فعند ما قدم بالجامان كريميو (B. Crémieux) إلى الجزائر ليلقي بها محاضرة أَبْرَقَ إلى كيبلينغ (Kipling): جئت إلى الجزائر لأفهم فرنسا». أما كيبلينغ وانجلترا فكان لديهما الهند. والهند كانت تفسيرا لانجلترا.

لم أتمكن إذا إلا في وقت متأخر من أن أشق طريقي نحو التاريخ الجديد المنفصل عن التعليم التقليدي. لأختار موضوع أطروحتي (كانت الأطروحة هي الحلقة الضرورية نحو التعليم العالي)، فكرت بالطبع في البداية، وأنا أعرف اللغة الألمانية على النحو اللائق، في التوجه نحو التاريخ الألماني. لكن هذا التاريخ كان يظهر لي مسمّماً بصفة مسبقة، بالنظر لإحساساتي الفرنسية المفرطة. لذلك انسقت في تجربة مع تاريخ اسبانيا الذي صادفته خلال دراساتي حول سِلم فيرنانس (*1598*) المنجزة تحت إشراف الأستاذ الجليل إميل بورجوا (E. Bourgeois). وبسهولة تعلمت الاسبانية، ثم بحثت لدى الوثائق الوطنية في مصادر كـ (Fonds K) الغنية، التي كان قد سلبها نابليون الأول من سيمانكاس. وفي الجزائر ارتأيت أن موضوعا مخصصا لفيليب الثاني وإسبانيا والبحر الأبيض المتوسط قد يشكل موضوع أطروحة مقبول. وبالفعل تم قبوله بالسوربون دون عناء.

لم تكن بفرنسا آنذاك لا منح للبحث ولا سنة للتفرغ. كان عليّ أن أنتظر عطلة صيف *1927* لأبدأ أبحاثي الوثائقية الطويلة سيمانكس. ،هنا حالفني حظ خارق : فبينما كنت أبحث عن آلة تصوير والتي كان يتوفر عليها الجميع (لأن الفُليم هو اختراع ما بعد الحرب) اقترح عليّ أحد التقنيين السينمائيين الأمريكان جهازا قديما مخصّصا لتصغير مشاهد السينما وأكد لي أنه قد يصلح، وبشكل عجيب، في استعمال الوثائق. فتلقى أمناء المحفوظات

بسيمانكس هذه التقنية بلهفة وإعجاب وهم ينجزون كل يوم شحن ألفين إلى ثلاثة آلاف صورة في كل فيلم مكون من لفائف ثلاثين مترا. لقد أفرطت في استعمال هذه التقنية في إسبانيا وإيطاليا. فبفضل هذا السينمائي الماهر، كنت من دون شك أول مستعمل للفليمات التي عملت على تحميضها بنفسي وقراءتها على طول الأيام والليالي عن طريق فانوس سحري بسيط.

شيئا فشيئاً نمت شكوكي حول تحرير نص العمل الذي أقوم به. فبينما لم يكن فيليب الثاني الحذر والكئيب يجذبني إلا قليلا، كان البحر الأبيض المتوسط يشدني إليه أكثر فأكثر. منذ *1927* كتب لي لوسيان فيفر قائلا (أذكر كلامه من باب الذاكرة) : «قد يكون من المثير للاهتمام معرفة بحر البرابرة عوض التركيز على فيليب الثاني». وفي سنة *1931* استعرض هنري بيرين بالجزائر أفكاره حول انغلاق البحر الأبيض المتوسط نتيجة الغزوات الإسلامية. لقد كانت محاضراته قيمة مكنتني من الكشف عن الانغلاق والانفتاح الدوريان لهذا البحر. فخلال هذه السنوات، بين *1927* و *1933*، في وقت كنت أتردد فيه على مستودعات الوثائق دون عجل حتى بخصوص الاختيار النهائي لموضوعي، نضج قراري من تلقاء نفسه. حينئذ اخترت البحر الأبيض المتوسط.

ثم هل كان من اللازم إنجاز مثل هذا البحث؟ كان أصدقائي وزملائي يعتقدون أنني لن أتمكن بتاتا من إتمام هذا العمل الطموح. لكنني كنت مقتنعا بمسألة أساسية وهي الكشف عن ماضي هذا البحر الذي كنت أشاهده كل يوم بواسطة الصور الخالدة التي كانت تلتقطها الطائرات المائية في تلك الفترة، والحالة هذه، كانت السلسلات الوثائقية العادية تتكلم بالخصوص عن الأمراء وشؤون المال والجيوش والأراضي والفلاحين. فمن مستودع للوثائق إلى آخر، كنت أنغرس في مصادر متقطعة، لم تستغل بعد إلا بشكل رديء، وأحيانا كان ينقصها الترتيب أو غير مرتبة بتاتا. وأتذكر فرحتي وأنا أكشف في دوبروفنيك سنة *1934* عن سجلات راكوز حيث عثرت أخيرا على السفن وأنوالها، البضائع، التأمينات، الرواجات التجارية... لأول مرة رأيت بحر القرن السادس عشر.

لكن كل موضوع في التاريخ يستدعي ويتطلب إشكالية. فقد نعمت

بحظ آخر، حيث مُنح لي سنة 1935، وبالصدفة، منصب بجامعة ساوباولو البرازيل التي وجدت فيها جنة للعمل والتبصر، ذلك أن المهمة التي أوكلت لي بإعطاء درس عام حول تاريخ الحضارة، جعلتني أحتك بطلبة ظرفاء وأحيانا متمردين، يعيشون بالقرب مني ويجعلونني أتخذ موقفا من كل قضية. فعشت ثلاث سنوات رائعة : في الخريف وهي فترة عطلتي الجنوبية كنت أتواجد بالبحر الأبيض المتوسط؛ أما الباقي من الزمن فأقضيه بالبرازيل بأوقات فراغ وإمكانيات هائلة للقراءة. لقد قرأت كيلومترات من الفليمات، واتصلت أيضا بشكل مباشر بلوسيان فيڤر سنتي 1932 و 1933، مرة لدى هنري بير (الذي كنت على اتصال به منذ 1930)، ومرة لدى الموسوعة الفرنسية بزنقة فور، ومرة في مقرّه، بمكتبه المدهش، الكائن بزنقة فال دوغراس. ثم في أكتوبر 1937 بسانتوس، فبينما كنت أغادر البرازيل نهائيا على متن السفينة (لم تكن في ذلك الوقت طائرات للركاب عابرة للمحيط) وجدت لوسيان فيڤر وهو عائد بعد سلسلة من المحاضرات ألقاها ببوينوس آيرس. لقد شكلت مدة العبور بالنسبة لي وللوسيان فيڤر وزوجتي، عشرين يوما من الثرثرة والضحك. حينئذ أصبحت أكثر من مرافق للوسيان فيڤر، أصبحت بمثابة ابنه تقريبا. وصار منزله بسوجي في جبال الجورا منزلي. وأبناؤه أبنائي.

في هذه المرحلة زالت كل تردداتي واقتربت من الهدف؛ فقد عيِّنت سنة 1938 بمدرسة الدراسات العيا. وفي صيف 1939 بدأت أستعد لتحرير كتابي بسوجي. واشتعلت الحرب. فشاركت فيها على حدود الراين. وسقطت سجينا في ألمانيــــا من 1940 إلى 1945، أولا بمايونس، ثم من 1942 إلى 1945 بلوبيك التي قادوا إليها متمردي اللورين. ومادمت قد خرجت في النهاية سالما من هذه المحن الطويلة فإن شكوتي قد تكون باطلة بل وجائرة : فلا أتذكر اليوم سوى الذكريات الطيبة، لأن السجن يمكن أن يكون مدرسة مهمة جدا تعلم الصبر والتسامح. وإن وصول كل الضباط الفرنسيين ذوي الأصل اليهودي، كان بمثابة دراسة سوسيولوجية استثنائية! ثم إن مجيء ستة وسبعين من رجال الدين، فيما بعد، وهم من كل جنس وخطيرين في نظر الألمان، كان تجربة غريبة! لقد فَتَحَتْ أمامي الكنيسة الفرنسية مروحتها، من خوري القرية إلى اللعازري ومن اليسوعي إلى الدومينيكي. ثم هناك مسرات أخرى وتجارب أخرى : فالعيش

مع بولونيين شجعان واستقبال المدافيعن عن فارسوفيا مثل الاسكندر جيستور وفيتولد كولا، والانغمار ذات صباح بالوصول المكثف لطياري القوات الجوية الملكية، والتعايش مع كل المختصين الفرنسيين في الفرار والذين أرسلوا إلينا للمعاقبة... وهي ذكريات رائعة في الغالب، ولكن الذي رافقني حقا خلال هذه السنوات الطويلة، الذي كان «يسليني» بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، هو البحر الأبيض المتوسط. ففي الأسر كتبت هذا المؤلف الضخم الذي كان يتوصل به لوسيان فيفر على شكل دفاتر مدرسية. إن ذاكرتي وحدها هي التي مكنتني من هذه النتيجة الاستثنائية. ومن المؤكد أنه دون هذا الأسر كنت سأؤلف كتابا مختلفا تماما.

لم أع هذه الحقيقة كليا إلا منذ سنة أو سنتين حينما التقيت في فلورانسا بفيلسوف إيطالي شاب، حيث قال لي: «ألفتم هذا الكتاب في السجن؟ لذلك أعطاني دائما الانطباع أنه كتاب تأمل». نعم، لقد تأملت البحر الأبيض المتوسط عن انفراد مدة سنوات بعيدا عن المجال والزمن. ثم إن تصوري للتاريخ أخذ حينئذ شكله النهائي دون أن أشعر بذلك على التو. كان ذلك، إلى حد ما، الجواب الفكري الوحيد لمشهد - البحر الأبيض المتوسط - لم يتمكن من استيعابه أي سرد تاريخي تقليدي، وإلى حد ما أيضا الجواب الوجودي الوحيد للأوقات المأساوية التي مررت منها. كل الأحداث التي كانت تسيلها علينا إذاعة وجرائد أعدائنا، أو حتى أنباء لندن التي تفشيها لنا الراديوهات السرية - كان عليّ تجاوزها، رفضها، نفيها. فليسقط الحدث. وخاصة المزعج! كان عليّ أن أقتنع أن التاريخ والمصير يسجلان على نحو أكثر عمقا. إن اختيار مرصد الزمن الطويل كان اختيار ملاذ لموقف الاله الأب نفسه. فبعيدا عن أشخاصنا وآلامنا اليومية يُسجل التاريخ ويدور ببطء مثلما هي كذلك هذه الحياة القديمة للبحر الأبيض المتوسط التي غالبا ما أحسست دوامها كثبات عظيم. هكذا أخذت أبحث بوعي عن لغة تاريخية تكون من العمق بالدرجة التي تمكن من استيعاب أو ابتكار الزمن الثابت، أو على الأقل الزمن الذي يتحرك ببطء شديد ويعاند في تكرره. هكذا انتظم كتابي حسب خطوط زمنية مختلفة ومتعددة، تسير من الثابت إلى قصر الحدث. وإلى اليوم لاتزال هذه الخطوط ترسم وتخترق، بالنسبة لي، كل المشهد التاريخي.

II

إن الشهاد التي تطلب مني حول مدرسة الحوليات وأصولها وبرنامجها تُدخل في الاعتبار ثلاثة رجال: هنري بير، لوسيان فيفر، مارك بلوك الذين تعرفت عليهم. كما سنرى، بطرق مختلفة.

الأول، هنري بير (1862 ـ 1955) وهو الذي يطرح المشاكل الأكثر صعوبة، سيثير هذا القول، وأنا متأكد من ذلك، دهشة الذين عرفوا هذا الرجل كشخص شفاف في أعين الغير، متحمس لعمله العظيم والمتفاوت إن صح القول، على نحو بعيد، ولو لحظة واحدة، عن التردد، ووفي لأولى مشاريعه وكتاباته : يخطر ببالي ذلك المقال «محاولات في علم التاريخ : المنهاج الاحصائي ومسألة الرجال الكبار» الذي ظهر بـ «المجلة الجديدة» في شهر ماي 1890؛ بل أيضا أطروحته الرئيسية التي قدمها عام 1898 «تركيب المعارف والتاريخ : محاولة حول مستقبل الفلسفة»؛ وحتى أطروحته الثانوية (المكتوبة حسب التقليد باللاتينية والمترجمة والمنشورة بالفرنسية ثلاثين سنة بعذ ذلك، عام 1928، تحت عنوان : «من شكوكية غاساندي») وهي على الأرجح أكثر مؤلفاته دقة وتوفيقا وإيثارا.

واليوم، وأنا أعيد قراءة هذه الكتابات القديمة جدا، أسمع بالضبط صوت هنري بير كما ظل في أذني إبان تعرفي عليه في وقت متأخر، سنة 1930 (كان عمره آنذاك 68 سنة). وسواء كان الأمر تصادفا غريبا أم حقيقيا فإن استقباله المباشر، الحار والرزين أثر في كثيرا، وهو الإحساس الذي مسّ بنفس الشكل رجلا شابا آخر كان قد التقى به لأول مرة عشرين أو خمس وعشرين سنة قبل ذلك : فقد ذكّره لوسيان فيفر عام 1942 قائلا : «على صغر شخصنا وبداية تكوننا عرفنا استقبالك. إنه فضل عظيم حقا؛ مودة كبيرة، بل أكثر من ذلك، انطلاقة».

يبدو إذا أن هذا الرجل لم يتغير، أو لم يحصل عليه إلا القليل من التغير، خلال حياة جد طويلة ذاق فيها على الدوام طعم الامتداد كرجل فكر وعمل.

والحالة هذه، فإن هذا الرجل هو، إلى حد ما، الحوليات قبل نشوئها، منذ

1900 ، وربما منذ 1890 . إليه يجب الرجوع إذا أردنا أن نعرف «كيف بدأ كل شيء». ولكن، عليّ أن أعترف أن تكوين هنري بير وسيرته المعروفة لم تكونا تحتويان، على ما يظهر، ولأول وهلة، على أي عنصر يؤهله مسبقا لهذا الدور الاستثنائي الذي قام به على أكمل وجه.

لقد كان تلميذا نابها جدا ، ومن دون شك فإن العديد من أمور حب الاطلاع جلبته منذ صغره مادام قد حصل في مباراة عامة سنة 1880 ـ 1881 على أوسمة كثيرة وخاصة جائزة الشرف في البلاغة (الخطابة اللاتينية) والجائزة الأولى في المقالة الفرنسية، الجائزة الأولى في الفلسفة. أكيد أن قراء «جريدة التاريخ الحديث» لا يعرفون هذه المباريات الوطنية التي تسجل في فرنسا ، نهاية التعليم الثانوي وتميز التلاميذ الممتازين. لم يكن بإمكان هؤلاء تصور هذه الهالة الملقاة بهذه الجوائز الثلاث مجتمعة على رأس هذا الطفل. لقد كان طفلا بالفعل : فقد تطلب التحاقه بالمدرسة العليا ، بزنقة أولم سنة 1881 تعديلا في السن، حصل بعده بثلاث سنوات على شهادة التبريز في الآداب.

إن الآداب القديمة، الأدب، اللاتينية، الاغريقية، هي المواد التي اختارها أخيرا لتتويج دراساته الجامعية. لكن أليس من المدهش أو من الزيغ أن نرى من أول وهلة، هذا المبرِّز اللامع في الآداب، أستاذ البلاغة لمدة أربعين سنة، إلى حدود عام 1925 ، وهو يتهرب منذ البداية، يكشف نفسه ويهمل المواد التي درّسها كل يوم بقريحة أكيدة، ليرتمي باندفاع في أحضان الفلسفة والتاريخ؟

وبما أن الخطابة الفرنسية أو الخطابة اللاتينية كانتا في نهاية القرن 19 مجرد تمارين مدرسية وبدون جدوى، يمكن التساؤل حول ما إذا كان هنري بير قد ظل، من الوجهة المنطقية، فيلسوفا بطبعه ونزوعه، وذلك تحت تأثير فوزه الكبير الأوَّلي (الجائزة الأولى في الفلسفة)؟ والحالة هذه أي فيلسوف لم يكن يهتم بالتاريخ بين 1884 و 1890 ؟ فلقد تغذت الفلسفة، منذ هيجل على الأقل، وبالضرورة، من هذه التجربة المعاشة بكثرة من طرف الناس، ثم إن التاريخ، وهو نوع من المادة الأولية، بدأ (وتلك قيمة إضافية) يتحول وينتظم منذ ما قبل 1870 . سجل هنري بير هذا التطور بقوله : «إن تأسيس مدرسة الدراسات العليا من طرف فيكتور دوري (V. Duruy) سنة 1868 ، وظهور «المجلة النقدية» سنة 1866 ، يبينان أن ضرورة تغيير تعليمنا العالي والرفع

من علمنا برزت قبل نكباتنا » إن هذا التاريخ الذي أخذ يُرسم في ذلك الحين هو تاريخ يهدف إلى التحليل والتنقيب اليقظ، وبكلمة واحدة، الى العلم، ذلك التاريخ الذي سيغزو السوربون الجديدة التي عرفت إصلاحا شاملا سنة 1908 ولكن بطريقة لم ترق الجميع، حتى هنري بير نفسه المتسامح بطبعه.

كفيلسوف إذن تابع هنري بير النقاشات الفكرية الواسعة لعصره وحاول الهيمنة عليها والكشف عن اتجاه لها. وعنوان أطروحته وحده يعبر عن ذلك. فمن باب التفصيل الدال، حينما كانت تتاح له في وقت لاحق، فرصة التكلم عنها، كان يشير إليها للاختصار ليس بالعنوان الرئيسي : «تركيب المعارف والتاريخ»، بل فقط بالعنوان الفرعي: «محاولة حول مستقبل الفلسفة». فكلمة فلسفة كانت تأتي في المقام الأول. إنه إذن فيلسوف، لكن ربما دعت الضرورة أن يكون هناك فيلسوفا بالضبط لهذه الإلمامات الأولى الضرورية. في وقت كانت فيه فرنسا تعرف زيادة على الاندفاعة القديمة لأوغست كونت (1798 - 1957)، الشمس الجديدة للسوسيولوجيا المناضلة مع إميل دوركايم (1858 - 1917) والمجلة التي أسسها سنة 1897 - «السنة السوسيولوجية» الرائعة التي ستشكل إحدى القراءات المفضلة لجيل بأكمله من المؤرخين الشباب من لوسيان فيفر إلى مارك بلوك إلى أندريه بيغانيول وإلى لويس جيرني.

والحال أن موقف هنري بير، على الأقل سنة 1898 لم يكن مرسوما ضد أو بصدد دوركايم، ضداً أو دفاعا عن السوسيولوجيا، بل ارتبط بعلاقات طيبة، بل جد طيبة ومستمرة مع «السنة السوسيولوجية». لكن الشغل الشاغل لهنري بير والمتمثل في «مجلة التركيب» كان أولا هو استرجاع واقعية فلسفة التاريخ على نحو ما كانت عليه في ألمانيا، شريطة، كما ألح على ذلك، ألا يُهمل لا التحليل الدقيق ولا الاحتراس الفكري مع إقصاء الأنساق الكبرى أو المفاهيم الاعتباطية غير المبرهنة وغير القابلة للإثبات. فإذا كان فهمي جيدا، ذلك هو فكر مؤسس «مجلة التركيب التاريخي» عام 1900، في هذه السنة الأولى من المجلة ومن القرن.

فهل كانت الحوليات، منذ ذلك الحين، في إمكان القوة داخل هذا المشروع؟ نعم ولا. فلوسيان فيفر ومارك بلوك ليسا بفلاسفة لا على مستوى الميل، ولا على مستوى الطبع. إن الشيء الذي طالبت به الحوليات، فيما بعد، هو تاريخ

يحوي في أبحاثه أبعاد كل علوم الانسان ويهدف إلى «شمولية» هذه العلوم والهيمنة عليها لإعادة بناء مناهجه الخاصة ومجاله الحقيقي. أما هنري بير فكان من اللطف لدرجة تجعله غير قادر على إظهار مثل هذه الامبريالية أو فقط حتى تصورها. فما كان ينوي فعله هو جمع الأشكال المختلفة التي يتوزع حولها التاريخ بشدة : تاريخ سياسي، تاريخ اجتماعي، تاريخ اقتصادي، تاريخ العلوم، تاريخ الفن، الخ. فهل كان بإمكانه، وهو يجذب إليه هذه الخيوط الهشة أن يأمل في الهيمنة بسهولة على الاقتصاد، على السوسيولوجيا، على علم الجمال... ؟ لا، من دون شك. لقد تعلق الأمر فقط بزيارة هذه العلوم المجاورة ومُساءلتها. إن مجلة التركيب التاريخي لم تنشأ ولم تحي تحت شعار المجادلة. إنها ظهرت، على الأكثر، تحت شعار المناقشة اللطيفة. أما في الخارج، مثلا في ألمانيا، في إسبانيا، أو في إيطاليا، فقد تم النظر إلى هذه المجلة الجديدة كتعبير عن مستلزمات العصر. «إن أمرا ما، يقول بينيديتو كروتشي (B. Croce) (النقد I، *20* يناير *1903*)، انتظرناه منذ بعض الوقت، كان لابد وأن يظهر من حين لآخر».

ومع ذلك فإن هذه المجلة أيقظت في فرنسا قلق وحنق المثقفين التقليديين الذين يقوى حسهم حينما يتعلق الأمر بالاعتراف أو نقض الجدة الهرطقية. نعرف ذلك جيدا من خلال أربع رسائل أصلية عثرت عليها صدفة في أرشيف كوليج فرنسا. لقد قدم هنري بير ترشيحه لولوج كوليج فرنسا مرتين، سنتي *1903* و *1910*، وهو آنذاك أستاذ بثانوية هنري الرابع التي درّس فيها منذ *1898* صحبة هنري بيرغسون (H. Bergson). هاتان المحاولتان أثارتا ردود فعل غريبة جعلته يدافع عن نفسه، أي يحدد فكره ويجادل خيط دخان. فقد كتب في *30* أكتوبر *1903* لمحافظ الكوليج : «لي ثقة أن أقوم في كوليجكم بعمل حر، بعمل جيد وجديد في جزء منه. إن مونو (Monod)، وهو آنذاك مدير المجلة التاريخية ومرشح أيضا للكوليج قد أخطأ حين كتب لي: هناك ما يكفي من مناصب الفلسفة بكوليج فرنسا، ويمكنني أن أجيبه : هناك ما يكفي من مناصب التاريخ الصرف وكذلك الأمر بالنسبة للفلسفة الصرفة. إن ما يصلح عموما ـ وهنا يكمن الطابع المتميز للمجلة التي أسستها ـ هو الجمع بين الهم الفلسفي وميل ومنهاج الأبحاث التنقيبية. فبالنسبة لي، ليس هناك تركيب

مقبول إلا عبر التحليل الرزين».

وسيكون أيضا أكثر دقة حينما سيخطو للمرة الثانية، سنة 1910، وبصفة أكثر جدية، خطوة جديدة نحو الكوليج. لقد أكد هنري بير «أن كوليج فرنسا لا يحتوي منذ 1892 على مادة في التاريخ الفلسفي، ولا حتى في التاريخ العام. يلقن هناك تاريخ الأدب، تاريخ الفن، تاريخ الفلسفة، تاريخ التشريعات، التاريخ الاقتصادي، تلقن هناك تواريخ وليس التاريخ...» أعتقد أن هذه الكلمات الصريحة والطنانة قد حرمته من ولوج هذه المؤسسة. فعلا لقد قرأت في مداولات يناير 1910، المحفوظة بسجلات الكوليج. ما يلي: «السيد بيديي Bédier (وهو آنذاك محافظ الكوليج) يخبر زملاءه أن السيد بير قد عدّل عنوان المادة التي يرغب في خلقها والتي يقترحها من الآن فصاعدا تحت اسم «النظرية وتاريخ التاريخ». وبهذا الصدد يقدر السيد بيديي أعمال بير وصنعه المجدي المتمثل في «مجلة التركيب التاريخي»، ويؤيد السيد بيرغسون ما يقوله السيد بيديي.» لحظات بعد ذلك يقدم بيرغسون المشروع وهو مبدئيا مدافع عنه: «تحليلا، يقول محضر الجلسة، وتفسيرا لهذا الاقتراح أشير إلى أنه ينبثق من ملاحظة صحيحة للوضع الحالي للدراسات التاريخية، لكنني أفوض إلى المؤرخين (بالكوليج) أمر البث في إمكانية وفائدة خلق مادة التركيب التاريخي.» معنى ذلك أن المقرر ترك هنري بير عرضة لضغينة مؤرخي المؤسسة. فخلال التصويت لم ينل هنري بير أي صوت. يالها من أعجوبة!

كان هنري بير إذا سنة 1910، على استغرابه الخاص وعلى الرغم منه، دون شك، «الكبش الأسود» للجامعيين التقليديين، وهو الموقف الذي سيحتله أيضا فيما بعد، بصيت كبير لوسيان فيفر بالخصوص وكذلك مارك بلوك. وعلى الأرجح فإن السبب يكمن في الأفكار التي تناقشها المجلة والتي كانت تقلق راحة المعنيين بالأمر، ثم أيضا في عمل هنري بير على جمع فريق من المثقفين المفعمين بالحيوية والنشاط والحماس والصخب والقادمين من كل جهة، مؤرخين، جغرافيين، اقتصاديين، سوسيولوجيين، بيولوجيين، انثروبولوجيين وفلاسفة بالطبع أيضا. فإن صحّ ظني - وكيف يمكن أن نخطئ أمام هذا الأمر البديهي؟ - كانت الحياة الفكرية في فرنسا وخارجها أيضا ترتبط بالجماعات الصغيرة،

بالأقليات النشيطة، بالصالونات الأدبية للأمس القريب والبعيد، بالمجالس، بالأندية، بقاعات التحرير، بالأحزاب الأقلية. انظروا إلى الدور الذي لعبته داخل الأدب الأمريكي المعاصر والمذهل، المقر المفتوح بباريز من طرف جيرترود ستين (G. Stein) المفكرة الذكية والمتحمسة للأصدقاء والضيوف العابرين! إن مجلة التركيب التاريخي ليست فقط تلك المقالات، وغالبا المقالات المليحة التي نجد اليوم لذة في إعادة قراءتها، وإنما أيضا، وأكثر من ذلك، هي اجتماعات. محادثات، تبادل الأخبار والأفكار. ففي المقر الكائن بـ 14 من زنقة سانت آن، كما يحكي ذلك لوسيان فيڤر وهو من زواره الأوائل «كنا ندخل قاعة صغيرة، ضيقة بعض الشيء ومظلمة، فنجد وراء المكتب رجلا شابا، رشيقا، ذا لباس بسيط لكن أنيق (إنه طبعا هنري بير)... كانت هذه القاعة الصغيرة تستقبل يوميا الكثير من الزوار. شبابا وقدماء. على اليسار كنت أراه أحيانا وقد ظهر عليه الهدوء والصمت، لكن سرعان ما يصير على حين غفلة، يقظا، حيًا، نزقا...» من هؤلاء الزوار بول لاكومب أحد العقول الأولى المحتكّة «بالتركيب». وبالطبع هناك أسماء أخرى يمكن ذكرها : هنري هوسير، فرانسوا سيمياند، أبيل ري، لوسيان فيڤر، بول مانتو وفيما بعد مارك بلوك. وإذا كان هنري بير يكتب قليلا، وعندما يكتب يترك قلمه يسيل بكثير من السرعة، فلأن عمله الرئيسي كان يتركز على النداء، على التكلم، على التدريس، على النقاش، على الانصات، على الجمع، على الانغماس في حوارات وأحاديث متعددة. فابتداء من الساعة الخامسة مساءا من كل يوم، أو تقريبا، كان يفتح للزائر باب مكتبه الكائن ب 2 من زنقة ڤيل بوا ـ ماروي. إنه الرجل الفاضل صاحب الاجتماعات الذكية، المُهيئة والمسيّرة بمهارة.

ومما لا شك فيه أن هذا العمل البطيء والصبور والمتعدد كان سيعطي نتائج مبكرة لولا الحرب التي اشتعلت عام 1914. فلم يتمكن هنري بير من إتمام عمله الشفوي، المسيّر والمُصمّم، إلا ابتداء من سنة 1920 وعلى نحو جزئي، وهي السنة التي بدأ يدير فيها سلسلته الهائلة «تطور البشرية» (ألبان ميشيل)، ثم أسس سنة 1925 «مركز التركيب»، وبعد ذلك بقليل، «أسابيع التركيب» الشهيرة. أما المجلة فقد استمرت لكنها غيرت عنوانها سنة 1931 ليصير «مجلة التركيب». إن اختفاء النعت «التاريخي» له دلالة عَرَضية :

سيادة الفلسفة والعمومية.

ليس في نيتي ولا في استطاعتي تقديم حصيلة ولو مختصرة حول هذا العمل المتعدد، بما في ذلك المداخل التي كتبها هنري بير للمؤلفات القيمة التي نشرتها سلسلته والتي كانت الجامعة تحب ممازحتها. ففي نظري، أن المهم هو هذا «الجمع النشيط، الحي، الفعّال، الغازي من الرجال» الذي التف حوله وبفضله، حسب عبارات لوسيان فيڤر - أو هذه الجماعة من الهراطقة على حد قول الحكماء، لكن أليس ذلك بمقلق؟ هنري بير مسير الهرطقة : هذا اللقب الجميل قد يفاجئه ولكن لن يضجر منه كثيرا.

لقد شكلت «الأسابيع » قواعد هذه المجهودات الرائعة. في سنة *1933* مثلا خصص «الأسبوع» لمفاهيم العلم والقانون العلمي. كان الجمع مكونا من رياضيين، فيزيائيين، عالم للأحياء، علماء النفس، عالم للاجتماع (موريس هالبواش)، مؤرخ للعلوم، عالم للاقتصاد وبول لونجوفان «أكبر فلاسفتنا العلميين»، ولوسيان فيڤر. «كنت هناك، يقول هذا الأخير، أنصت الى هؤلاء الرجال وهم يبحثون بيقين صادق وشديد عن سبل من شأنها حد وحصر وقياس الضرر الذي ألحقه الزحف الكبير للفيزياء المعاصرة بنظرياتنا. فإذا بإيقاع موزون يخرج من هذه الجوقة ذات الأصوات المتباينة؛ ها هم يقولون نفس الكلمات بنبرات مختلفة؛ ها هم يعملون ، وبشكل إنساني على تحسيس الجميع بالوحدة الأساسية للعقل البشري. إنه درس كبير [...] قد انقطع بالنسبة الينا - انقطع الى الأبد كدرس تجريدي. لقد أخذ، إذا صح القول، وجه إنسان».

وتشير هذه الكلمات الى معنى أنشطة الدائرة المؤسسة حول هنري بير ابتداءا من *1900* - *1910*، والتي تجددت باستمرار فيما بعد. والحال أنه قد نشأت من داخل هذه الدائرة، في وقت لاحق، رغبة خلق مجلة أكثر نضالية من مجلة التركيب، أقل تفلسفا وتعتمد أبحاثا ملموسة وجديدة. فمن هذه الرغبة، أو على الأصح، من هذه الضرورة نشأت أخيرا مجلة الحوليات. لكنها نشأت ببطء. فقد التقى مارك بلوك ولوسيان فيڤر بجامعة ستراسبورغ حيث عينا في وقت واحد، في نونبر *1919*. وسوف ينتظران عشر سنوات لإصدار مجلتهما سنة *1929*. وخلال هذا الفاصل الزمني الطويل كانا يتعاونان بانتظام مع هنري بير حيث كان لوسيان فيڤر يسافر من استراسبورغ الى باريز بمعدل عشر مرات

على واحدة. ففي مركز التركيب التقيت معه لأول مرة، في معرض نقاش رائع حول الإنسية، في أكتوبر 1934. بل أكثر من ذلك كان لوسيان فيفر المحرك والمسؤول الرئيسي عن «الأسابيع» التي كانت في نظري، وعلى مدى بعيد، أكثر البرامج نجاحا في كل أنشطة المركز الكائن بزنقة كولبير. وفي سنة 1938، خصص «الأسبوع» للحساسية في التاريخ وأساسا لأعمال لوسيان فيفر الذي كان يفكر في هذه الفترة حتي في تسيير شؤون مجلة التركيب، وهو أمر كاد أن يكون واقعا لولا الحرب العالمية الثانية.

إن قيام الحوليات سنة 1929 لم يخلق تصدعا. وعلى أي حال فإن الأمر لم يأخذ هذه الدلالة إلا مع مرور الزمن، وخاصة بعد الحرب، خلال سنوات العزلة المتفاقمة التي مر منها هنري بير من 1945 الى 1956. إنها قطيعة الابن والأب. هكذا تم النظر اليها، وهكذا نظرت اليها. إن الأب لم يكن بإمكانه أن يشتكي صراحة. فكل شيء مرفي صمت. وحتى تقديم المجلة الفتية سنة 1929 لم يلمح بأية إشارة الى مجلة التركيب. لكن ألم يكن ذلك وحده معبرا؟ إن تخريب وريثة هنري بير للمراسلات الغزيرة التي كان يتلقاها من لوسيان فيفر، وخاصة خلال السنوات الطويلة من حرب 1914 - 1918، تحرمنا من وثيقة قد تكون فاصلة. إلا أن الأمر قد وقع : ففكر لوسيان فيفر كان حقا قد تكون وتغذى من قلب التركيب كما يقول هو نفسه.

III

إن دليل مؤسسي الحوليات يكمن في النجاح الفكري الهائل لعملهم المشترك، من 1929 الى 1939. ليس هناك أي مقاس مشترك بين مجلة التركيب التاريخي أو مجلة التركيب والحوليات. فالتركيب فتحت المجال وبإفراط لنقاشات نظرية ومفاهيم مرت على الساحة كالأشباح والسحب. أما الحوليات فهي واقعية. لقد فتحت صفحاتها لرجال الزمن الحاضر والزمن الماضي لطرح مشاكلهم الملموسة، «النابضة بالحياة» على حد قول غاسطون روبنيل. حقا أن المتعاونين مع مجلة التركيب شاركوا في خلق الحوليات، لكنهم بتغييرهم للمقر غيروا المظهر والأسلوب. الى مقر الابن هو مقر حلاوة العيش والفهم، بل أيضا

الهجوم والجدال: إنه مقر الشباب، بالإضافة الى قريحة منقطعة النظير لرجلين (فيڤر وبلوك) لا يمكن مقارنتهما إلا بأكبر المؤرخين ذوي التعبير الفرنسي، أمثال هنري بيرين، فوستيل دو كولانج، ميشلي. ولنضف في الأخير أنه في ستراسبورغ أسست فرنسا سنة 1919 ألمع جامعة عرفها تاريخنا. فالحوليات لم تجد أي صعوبة في إيجاد أحسن المتعاملين أمثال أندريه بوليغ، شارل إدموند بيران، جورج لوفيڤر، بول لوليو، غابريال لوبرا.

إن نجاحهم، في بعده العميق، هو نجاح تعاون مديري مسير على نحو رائع وفريد في تاريخ الاسطغرافيا الفرنسية.

ومرت السنون. فمن 1946 الى 1956 صار لوسيان فيڤر، في الواقع، وحده على رأس إدارة الحوليات؛ ومن 1956 الى 1968، أصبحت بدوري، فعلا. مسيرها الوحيد.إلا أنه من غير المنطقي المرور علي حوليات 1929 - 1939 دون نقاش.

إن قوة الهدم الحيوية التي مارستها الحوليات في هذه الفترة تكمن في كونها نشأت في ظرف كانت فيه الاسطغرافيا الفرنسية على مستوى سطحي وعام. فمنذ البداية ظهرت الجامعة في غالبيتها معادية للحوليات. فمارك بلوك لن يتمكن سنة 1928 من ولوج الفرع الرابع من مدرسة الدراسات العليا. كما أن محاولته المتكررة مرتين للدخول الي كوليج فرنسا كانت بدون جدوى، ولن يتمكن من الحصول على منصب بالسوربون إلا سنة 1936 حينما حل محل هنري هوسير. أما لوسيان فيڤر فقد تمكن وبعد محاولته الثانية، سنة 1933، من الدخول الى الكوليج ليصير أحد مشاهيره. كذلك فإن هنري هوسير، صديقهما ورفيقهما في النضال لم يقبل هو أيضا بالمعهد، سنة 1936. وبالمجلة التاريخية التي كنت أزورها كثيرا من 1933 إلى 1935، أي مؤرخ معروف آنذاك لم يكن يطعن في الحوليات؟ كنت أتجادل من حين لآخر مع شارل سينيوبوس الذي كان على الرغم من كبر سنه خصما مجادلا (لكن ذلك هو الذي جعلني أحبه).

وباختصار، كان هنالك حقد كبير، لذلك كانت الحوليات أشد حيوية وملزمة لأن تكون كذلك : كانت تدافع عن نفسها وتضرب بقوة، ليس لأسباب شخصية، بل في مواجهة الأحقاد الإدعائية والتافهة. لقد كانت مصيدتها

مدهشة، فمارك بلوك المنظم في انتقاداته كان يعالج الأمور في الغالب دون شفقة، أما لوسيان فيڤر فكان يسخر بخصومه، ويعطي لهجوماته نكهة رابليزية.

وحينما أفكر في الأمر جيدا أرى أن هذا الجو من الصراع قد ساهم في الجودة الاستثنائية للحوليات الأولى. وحوالي *1945* لم يعد هناك حقد : فكل شبيبة الجامعة أخذت تجري مع تاريخ الحوليات، لدى لوسيان فيڤر، لدى إرنست لابروس الذي حل محل مارك بلوك بالسوربون، ولدي أنا أيضا. هكذا فقدت السوربون عدوانيتها، رغم أنها ظلت ترفض تغيير الأسلوب : «إننا لا نستطيع مع ذلك إعادة دروسنا» ، تلك هي العبارة التي فاه بها سنة *1945* أحد المؤرخين المعروفين جدا بالسربون وهو يتحدث الى شارل مورازي.

والمثير للاهتمام أنه حوالي *1929* كان كل شيء في حاجة ماسة لأن ينجز أو يعاد إنجازه أو تعاد صياغته على المستوى المفاهيمي والعملي للتاريخ. فهذا الأخير لم يكن بإمكانه التحول إلا بالاندماج مع مختلف علوم الإنسان كعلوم مساعدة لمهنتنا ويغزو مناهجها ونتائجها وحتى أساليب نظرها. إن لوسيان فيڤر الذي كتب المدخل التنبيهي الفاتح للعدد الأول من الحوليات يقول ذلك دون مراوغات وبحدة يجب تصورها لأنه على الرغم من مرور السنين فإن صوته ظل منطقيا الى اليوم. لقد ندد بالبحث المحوجز، مؤرخون من جهة، اقتصاديون ومختصون في الواقع الاجتماعي الحاضر من جهة أخرى، تاريخ مجزأ حيث يعمل كل واحد في ميدان محاط بأسوار عالية، سوسيولوجيون مهتمون إما بـ «المتحضرين» أو بـ «البدائيين» ويجهلون بعضهم بعضا. يقول لوسيان فيڤر : «إننا ننوي النهوض ضد هذه الانقسامات، ليس بواسطة مقالات منهجية ومباحث نظرية، بل بالنموذج والواقع... [مثال ذلك] العاملون في مختلف الاختصاصات... الذين سيعرضون نتائج أبحاثهم حول المواضيع التي تدخل في كفاءاتهم واختياراتهم... » وإذا انتبهنا لهذه الكلمات التي استعرضتها سنجد تلميحا لأسلوب مجلة التركيب، بل أيضا اقتباسا للازماتها. إن أعظم جديد في المسألة هو أن الصراع كان متمركزا حول مكان واحد لتجمع البحث : فعلم واحد قام ضد باقي العلوم. بل أكثر من ذلك فإن هذا التاريخ المتميز وإن كان قد احتفظ بالأفق الاجتماعي برمته، من التراتبيات الى العقليات، كان يهدف بالخصوص الى احتواء الاقتصاد. فعلى غرار النموذج الرائع للمجلة الألمانية،

مجلة «التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» تعنونت الحوليات الأولى بـ «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي». هكذا أتيحت لمارك بلوك الفرصة ليتأكد عن قرب كأول مؤرخ اقتصادي في فرنسا.

ولقد اتسعت الهوة بين الحوليات ومجلة التركيب. فبالنسبة لهنري بير «المجتمع يشمل الاقتصاد»، أما الحوليات فقد عملت على إضاءة «مظهر من حياة الناس، ظل في الظلام زمنا طويلا، والذي نادت الماركسية من أجل الانتباه إليه». ثم إن انتقادا يستتبع انتقادا آخر، فلقد كتب لوسيان فيڤر في وقت لاحق : «كان هنري بير يتتبع باستمرار الحوليات عن بعد...».

وعلى أي حال، كانت الحوليات، خلال العشر سنوات الأولى من وجودها، ولو أنني أكرر القول، ثمرة تعاون دؤوب وصداقة لا نظير لها بين لوسيان فيڤر ومارك بلوك. هذه الصداقة بتعارضاتها المنطقية، باتفاقاتها، بنتائجها الرائعة، كانت تجري في قلب المشروع. فمن *1919*، تاريخ التقائهما بستراسبورغ الى *1944* تاريخ وفاة مارك بلوك معدوما من طرف الألمان، تفسر هذه الصداقة التي استمرت خمسة وعشرين سنة، العمل المشترك المبني على الاتفاق الكبير.

ففي معرض كلمة الإهداء التي قدمها مارك بلوك للوسيان فيڤر في كتابه «مهنة المؤرخ (المؤلف سنة *1941*، والمنشور عام *1949*) يقول بغبطة : «طالما ناضلنا بانسجام من أجل تاريخ أكثر سعة وأكثر إنسانية [...] فمن بين الأفكار التي كنت أعمل على دعمها كثيرة هي التي تأتيني منك مباشرة. وأفكار أخرى كثيرة أجد نفسي غير قادر على الجزم، بكل وعي، ما إذا كانت تؤنبني أحيانا، إلا أن كل هذه الأشياء تجعل بيننا صلة إضافية». «نعم، يقول لوسيان فيڤر، وهو يعلق على هذه السطور، كم من أفكار، ولوقت طويل، أنتجناها في إطار من التبادل والاستشارة والتنقيح والتشابك». ستلاحظون نبرة الثقة والمودة النابعة من الطرفين، وفي نص مارك بلوك، إذا لم أسيء الظن، هناك لذعة في الاعتبار : «إنك تؤنبني أحيانا». لقد كان هناك بين لوسيان فيڤر (*1878* ـ *1956*) ومارك بلوك (*1886* ـ *1944*) ليس فقط اختلافات قوية ومتعددة في الخاصية والطبع، في الفهم وميول الشخصية، بل أيضا اختلافا على مستوى السن، في البدء على الخصوص، لا يمكن إهماله. فعندما التقيا لأول مرة بجامعة ستراسبورغ، سنة *1919* «كان مارك بلوك، على حد قول فيڤر، يبدو

لي شابا جدا. حقا أن المرء في سن الثانية والثلاثين من عمره يكون شابا جدا في أعين رجل الأربعين» ويستمر قائلا : «كان بلوك حاضرا هناك، مضطرما، محبوسا، مفعما برغبة عنيدة للعمل، وعلى الفور وبكل ثقة، كان يسألني كما يسأل الأخ الأكبر». لقد كان فيڤر يتوفر آنذاك على نتاج مهم (أطروحته القيمة حول فيليب الثاني والفرانش - كونتي الذي قدمها للمناقشة عام *1911*). فهو البكر، الفكر المدبر، العقل الجذاب، وباختصار، الأستاذ، أما مارك بلوك فكان في هذه الفترة، وإلى حد ما تلميذا. ذلك ما يؤكده الطلبة الشباب (منهم صديق عزيز، هنري برانشفيك) الذين كان لهم امتياز الاستماع الى هاذين الأستاذين الكبيرين. فهناك أستاذ في كامل تألق تدريسه وفكره، هو لوسيان فڤير، وأستاذ يخرج من التدرب، هو مارك بلوك. لقد ظل، على الدوام، ومن دون شك، شيء من هذا الماضي حاضرا في علاقة الرجلين. لكن في سنة *1929*، عندما باشرا معا ذلك العمل الضخم المتمثل في خلق مجلة الحوليات، كانا، بالتأكيد، يسيران علي قدم المساواة. إن انسجامهما كان تاما لدرجة أنه يصعب على المرء، لولا التوقيع، أن يفرق بين مقالي فيڤر وبلوك. ومن البديهي أن مارك بلوك كان يقتدي في كتابته بلوسيان فيڤر، لكنهما خلقا في النهاية بأساليبهما، من صياغات سياق الجمل ومفردات، لغة للحوليات من طراز أدبي أكيد، والتي، مع ذلك، ستغضب الخصوم في العمق. فهل التاريخ، وهو يسعى للعلمية لا يعدو أن يكون مسألة كتابة وموضة أدبية؟

فمن هما هذان الرجلان؟ للأسف، لم أتمكن من التعرف كثيرا علي مارك بلوك، ذلك أنني لم أره إلا ثلاث مرات بباريز سنتي *1938* و*1939*. إنه ابن مؤرخ كبير هو غوسطاف بلوك، المتخصص في التاريخ الروماني، والذي درّس طويلا بالمدرسة العليا ثم بالسوربون. وخلال مسيرته الدراسية، فاز مارك بلوك بجائزة المباراة العامة، درس بالمدرسة العليا، حصل على شهادة التبريز في التاريخ، استفاد من منحة للدراسة بألمانيا في جامعتي برلين وليبزيغ (*1908* - *1909*) وعمل أستاذا بمؤسسة تيير (Thiers) في باريز. وفي سنة *1920* نشر بستراسبورغ أطروحته : «ملوك وأقنان : فصل من التاريخ الكابيسي». أما في سنة *1929*، عندما أخذ إدارة شؤون الحوليات، فكان قد أنتج أعمالا كثيرة، من بينها هذه التحفة «الملوك مدعو المعجزات» (*1924*) الذي يرجع

مشروعه الأول الى إيحاء أخيه البكر، ذلك الطبيب الرائع الذي توفي قبل الأوان.

وعن لوسيان فيڤر، ولد عام *1878* في نانسي بإقليم اللورين، من أب وأم كونتيين. أبوه الذي كان طالبا قديما بالمدرسة العليا (للأساتذة) عمل أستاذا للنحو بثانوية نانسي طوال حياته. تابع لوسيان فيڤر دراساته الثانوية والجامعية بنفس المدينة. وقد كنت آخذ عليه من باب المزاح احتفاظه بنبرة لورينية - والتي كنت أجيد التكلم بها كما ينبغي. غير أن لوسيان فيڤر ودون أن يتخلى عن اللورين، كان يحس دائما بانتمائه لإقليم الفرانش - كونتي، وعند الاقتضاء، مع بعض التقصير في حق دوقية بورغونيا أو النواحي السويسرية المجاورة.

كان لوسيان فيڤر تلميذا بثانوية لويس الأكبر ثم طالبا بالمدرسة العليا، قبل أن يحصل على شهادة التبريز في التاريخ سنة *1902*، ويصير أستاذا داخليا، بعد ذلك، بمؤسسة تيير في باريز : وهناك حصل على إعفاء من التدريس مكنه من التفرغ للعمل في أطروحته. عندئذ، وهو شاب صغير، تعرف على هنري بير الذي كان يحب، وبمزاح، إثارة هذه الأزقات القديمة حيث كان يقصده لوسيان فيڤر ليطلب منه النصحية ويعرض عليه مقالاته.

للأسف، لم نتمكن من قراءة أية رسالة من شباب لوسيان فيڤر. فلا يمكن أن نفهم إذا هذا الرجل إلا من بعيد. ويكفي أن نسجل، بخصوص هذه السنوات من تكوينه النهائي ميله القوي للأدب، فها هو معجب بالدرس اللبق لجوزيف بيديي؛ ونسجل أيضا وده للمؤرخين : غوسطاف بلوك وغابريال مونو (كشخص أكثر منه كأستاذ)؛ وإعجابه - وهو رجل اشتراكي أو متشترك - بجون جوريس ودروسه. وعلى العكس من ذلك نلاحظ نفوره من هنري بيرغسون ومن هنري فالون أيضا وإن كان صديقا ملازما له. وأخيرا كان من المعجبين بالجغرافي لوسيان غالوا (*1857* - *1941*) تلميذ وصديق فيدال دي لابلاش - الذي كان يعرفه فيڤر أيضا). فقد كان لوسيان غالوا هذا أستاذا باهرا آنذاك. ولوسيان فيڤر نفسه ظل طوال حياته جغرافيا متنبها وملاحظا رائعا للأرض، للنباتات، للبشر، للمشاهد. إن كتاب «الأرض والتطور البشري الذي ظهر سنة *1920*، يعتبر تحفة لم يتم بعد تجاوزها ولا تعويضها، كما عبر عن ذلك الجغرافي بيير غورو، وهو أدرى بهذا الأمر.

لكن الثابت في الأمر والمهم هو أن لوسيان فيڤر سرعان ما حاز على أهليته. فأطروحته، «فيليب الثاني والفرانش ـ كونتي» (1911) هي تحفة حققت مبكرا برنامج الحوليات المستقبلية. إن هذا الكتاب، وهو لم يشخ بعد ونحن في 1972، وكونه لايزال يصنف دون تجعد بجانب أهم وأحدث أبحاث التاريخ الإقليمي الفرنسي ـ أبحاث إيمانويل لوروا لادوري، روني باريل أو بيير غوبير ـ يعتبر رقما قياسيا رائعا. أليس فهم ماضي الإقليم انطلاقا من ملاحظة واقعه التاريخي وفعليته الجغرافية عملا منبثقا، حسب التعبير الجديد، من «تفكير شمولي»، وهو الشكل الوحيد الكفيل بإقناعنا اليوم؟ فمنذ وقت مبكر كان يتوفر على رأسمال هائل من التبصر والقراءة: كان له فضول كوني وهبة كونية في فهم الأمورحتى تلك التي يعالجها لأول مرة. لقد كان دائما متنبها، وعلى نحو باهر، لما يقوله الغير كما كان متقنا للإصغاء، وهي مزية نادرة، ومتعمقا في أصعب عمليات الاستدلال بكتابة محيرة من شدة البساطة. وفضلا عن ذلك كان سخيا في اكتشافاته وأفكاره. هذه العطاءات كان يبرقها، إن صح التعبير، لأنه كان بطبعه قليل الكلام، مع أنه كان يروي بشكل رائع عندما يقبل بذلك. وباختصار، كان يظهر لي، وهو يجمع بين الأخذ والعطاء، مثل ديدرو عصره :فقد شكل وحده «بنكا من الأفكار لجيل بأكمله». وعلاوة على ذلك فإن الحوليات الأولى كانت تعرف نفس الحماس ونفس دلالة المجادلة والصراع اللذان نلمسهما في موسوعة «فلاسفة» القرن 18.

طبعا، إنني لم أقل كل شيء ولم أفسر كل شيء بخصوص الرجال والأعمال الذين عملوا على إنشاء وإحياء الحوليات.

فقد كان علي أن أقدم لوسيان فيڤر وهو يتراجع أمام حماسة مارك بلوك عن قطاعات أظهر فيها، منذ البداية، كفاءات كبيرة : التاريخ الاقتصادي، التاريخ القروي والزراعي، فلقد أخلى له فيڤر المكان، وحول اتجاهه وبقوة نحو تاريخ العقليات، فكان أهم عمل على الإطلاق في هذا التحول هو بحثه حول رابلي، علما أن بداية ذلك تكمن في مؤلفه حول مارتن لوثر سنة 1924. هذا هو المنظور الأكبر الذي شكل منذ ذلك الوقت مركز أبحاثه واهتماماته. إن كتابه الأخير الذي رأيت مخطوطه قبل وفاته بشهر والذي اختفى بشكل غريب، كان يحمل عنوان «الشرف والوطن». لقد سار في اتجاه لم ينتج حوله آنذاك إلا

القليل (البحث في العقليات الجماعية)، وهي دراسة حول المرور من الإخلاص للشخص، للأمير (الشرف)، الى الإخلاص للوطن (الوطنية) - وإجمالا تاريخ نشوء فكرة الوطن.

لم أتمكن أيضا من أن أقول كل شيء حول الحوليات التي على الرغم من توقدها لم تشكل مدرسة بالمعني الضيق، أي نسقا للتفكير مغلقا على نفسه بل بالعكس، شعارها هو حب التاريخ ليس إلا. والأكثر من ذلك هو الارتباط الوثيق بهذا الحب الذي مكن من البحث في كل إمكانياته الجديدة، بل وحتى قبول تغيير الإشكالية حسب ضروريات ومنطق الساعة، لأن الماضي والحاضر يختلطان على نحو معقد. حول هذه النقطة يتفق كل المسيرين المتعاقبين على إدارة الحوليات.

ثم من لن يبتسم وهو يرى كيف أكتب حول الحوليات تاريخا تاريخانيا كما يقول هنري بير، أو حدثيا حسب بول لاكومب؟ لقد تكلمت عن رجال وأحداث، والحالة هذه، من البديهي أن يصب هذا المجرى المائي الصغير، الموجز والحي، من «التركيب» الى «الحوليات» في مشهد شاسع، عبر مرحلة متميزة وهائلة من التاريخ، من *1900* الى *1972*، توافق بلدا متميزا - هو بلدنا. لقد قال لوسيان فيڤر «تعرف فرنسا بالتنوع». فهل من قبيل الصدفة إذا أن يكون هنري بير، لوسيان فيڤر، مارك بلوك وأنا أيضا، نحن الأربعة من فرنسا الشرقية؟ وأن ينطلق مشروع الحوليات من ستراسبورغ، في مواجهة ألمانيا والفكر التاريخي الألماني؟.

وأخيرا هل كنت على حق حينما قررت منذ أكثر من أربع سنوات، أن أترك عناية تسيير شؤون الحوليات، دون أن أسهر عليها شخصيا، لطاقم شاب - جاك لوغوف، متخصص في العصر الوسيط، إيمانويل لوروا لادوري، متخصص في الأزمنة الحديثة، ومارك فيرو، متخصص في التاريخ الروسي المعاصر؟ أحيانا أختلف معهم صراحة، لكن بفضلهم أصبح المقر العجوز مقرا للشباب.

(*) «Bouquillons»، النص الفرنسي الذي أنجزنا بناء عليه هذه الترجمة، يحمل بين مزدوجتين هذه الكلمة، التي تعني، حسب الاشتقاق اللغوي، الباعة المتجولون للكتب القديمة، أو على الأرجح صيادو بعض الحيوانات البرية مثل الوعل أو الأرنب البرية.